ضحية اليتم

وارحمتاهُ لليتيم. وارحمتاه لصغير سطر لهُ الشقاء في صحيفة الغيب فحرم قلباً رحيماً يحنو عليهِ ويداً بارة تمد اليهِ فتفقد بذلك كل امل لهُ في الحياة واصبح يشعر بذلة لا يمحوها مال وفير ولا جاه كبير

اتعس التعساء اليتيم اذ ليس ما يعوزهُ من الحياة حاجة مادية في ايدي الناس فذلك امر ممكن الوصول اليهِ ولكنهُ يفتقر الى غذاء الروح ذاك السر المعنوي الذي اودعهُ الله في صدور الوالدين وخص بهِ الامّ فجعلها ينبوع المحبة وجنة الحياة

ما الذي يتطلبهُ البائس بعويلهِ وأناتهِ ولماذا يشكو المحب اذا برّح بهِ الوجد وعلى من تعلق القلوب الكسيرة همها واساها وعلامَ تذرف عين المظلوم حار عبراتها . البائس ينادي الرحمة لتستدر كرم الجواد فيبسط لهُ يداً تسد عوزهُ . والمحب يتوسل الرحمة ان تستميل قلب حبيبهِ فيليهُ ما شاء . وذو القلب الكسير يسأل الرحمة ان تستنهض لهُ النجدة والمروءة فتنتشلاهُ من سقطتهِ . والمظلوم يستصرخ الرحمة كي تعلو عرش العدل فتنصفهُ من ظالمهِ . الرحمة قبلتهم وملاذهم . الرحمة عزاؤهم وسلواهم . الرحمة سعادتهم واملهم . ولن يعدم اي احد من هؤلاء قلباً رحيماً يلبي نداءهُ ويحيي أملهُ ولكن اليتيم مظلمةٌ امامهُ سماء الآمال. وان ما على الارض من رحمة لا يروي ظمأ روح عدمت مورد الحنو والعطف الذي هيأتهُ الطبيعة لاستقائها

فيامن يستوقفك منظر الناشئين من ارباب الثراء في زينتهم وزخرفهم تحسدهم على مظاهر الابهة والعظمة لا يدهشنك ان ترى بينهم عيّوناً حزينة تستشعر من نظراتها كمين الالم او تسمع من افئدتهم تنهدات عميقة لا تتفق مع الطفولة الضاحكة اللعوب فاولئك قد اطفأ اليتم بريق اعينهم واسكت لغات قلوبهم الراقصة الطروب

ويا من تذكر عهد الطفولة فرحاً باسترجاع رسومهِ جاسياً انهُ وقت الهناء الحقيقي ممدّداً العابك وملاهيك متذرّاً مبلغ اعزازك بين اهلك وذويك لا يفتك ان تعلم ان ذلك العهد الذي قضيتهُ بين ابتهاج وابتسام وطرب ومرح

يذكره غيرك ممن لا يقل نصيبهم في الحياة المادية عن نصيبك ان لم يفضله ذكرى مؤلمة مريرة تنغص عليه حاضره ومستقبله

انت تذكر البلبل الصدّاح والعصفور المغرد اللذين احتبستهما لمسرتك وخصصتهما بعنايتك والفراش الذهبي الذي كنت تطارده فوق ارض الحديقة السندسية والشجرة المثمرة التي كنت تستظل بها اذا اعياك التعب والزهرة اليانعة التي راقك منظرها فاقتطفت منها ما وضعته اكليلاً على رأس امك فضمتك الى صدرها وطوقتك بذراعيها وقبلتك قبلات تبعث في النفس سعادة تحبب اليها الحياة وتجعل كل ما فيها من المناظر والصور حياً ناطقاً مستطاباً شهياً. ولكن سواك لا تعلق بذهنه تلك التذكارات. لقد لعب كما لهوت ولعبت وتمتع من المسرات بكل ما تشتهيه نفس طفل ولكنه لم يسعد السعادة الحقيقية بان يجد الى جانبه اماً تضمه الى صدرها وتلثمه بلُمَاتها وتحييه بنظراتها وترعاه بعنايتها. فوارحمتاه لليتيم

بالامس اقتطف الموت من بيننا زهرة لم تتفتح بجمال الحياة لم تلك من النضرة والبهجة على ما تشتهيه منها اذ لم ترعها الا موهة الاّ وقتاً قصيراً في بدء سني حياتها ثم قضي عليها ان تحرم من تلك النعمة فقدت بذلك منهل الرحمة الفياض الذي لا يغيض ماؤه وبقي لها نصيب من الحنو والعطف لا يفي بحاجتها كي تنمو وتترعرع

سارت هذه الفتاة في طريق التربية المدرسية امداً قصيراً قطعته عليها لانقلاب الفظيع الذي يورثه اليتم اذ يتحول عن الصغير ذاك الظل الوارف ظل الحب والعطف والحنو والراحة لتخيم مكانه سحابة سوداء من التعوة والغضب والكآبة. فيا لسوء المنقلب

انقطعت الفتاة عن الدرس لتقيم في البيت رغم ارادتها فاذا كان البيت بالنسبة اليها البيت جنة الصغير ما دام معطراً بانفاس امه ومقر انسه ونعيمه ما دام يحوي قلباً يضم له الحب. ومسرح هنائه وصفائه ما دام يستشعر فيه الراحة والطمأنينة. ومغرس الآداب الحسنة في نفسه ما دام الاخلاص يثير سماءه وعلاً فضاءه. فاذا ما زال عنه هذا الامتياز فقد قداسته واحترامه. لذلك لم تجد فتاتنا في المقام بالبيت بعد موت امها ذلك المعنى الذي كانت تجده من قبل بل

رأت ان جمالاً مخصوصاً كان فيما مضى يظلل البيت ويتوجهُ قد ذهب الى حيث لا يرجع. ولكن ما الذي تستطيع ان تعمله فتاة لم تتعدَّ الحادية عشرة

الرأي الاعلى والكلمة النافذة لابيها وهي في تلك السن انما لسوء الحظ لا ينفرد الاب وهو البر الرحيم بالرأي فيما يتعلق بصغيره فقد امهِ بل يشركهُ من يختارها مكان ربة بيتهِ الاولى وهذه مهما كانت تعمل على هدم القديم وافساد صلاحهِ

قضت كل هذه الاحوال السيئة بحرمان الفتاة الناشئة من الاستضاءة بنور العلم والتحلي بجمال التهذيب وكان لها فكر وفؤاد ونفس شغوفة متطلعة لذا ترك هذا القضاء القاسي حسرةً في قلبها لم تفارقها حتى آخر ايامها

وبديهي ان يخرج بها ذلك الحال الى ما يقتضيهِ نظام حياتها الجديد لان امامها بعد سويعات قصيرة يقضيها والدها في تعليمها متسعاً من الوقت لا يشغلهُ ضحك ولا لعب. فقد انساها الزمن ذلك كلهُ اذ استعاضها عن البيت العزيز حيث الحب والطهر والاخلاص مكتباً لا تشرق فيهِ شمس الهناء فلا عطف ولا لين. وعن المعهد العلمي حيث النور والهدى والوفاق داراً تتلقى فيها دروس البغضاء والشحناء. وماذا يكون مصير فتاة تعيش في هذا الوسط

لم تكن الفتاة سلسة القياد لتذعن للسلطان المستبد الذي ولاهُ القدر عليها لذلك حملت نفسها ما لا طاقة لها عليهِ من كفاح ومقاومة ولعل اكثر ما عكر صفو حياتها فرط الذكاء ورقة الشعور وحدة المزاج ونفس ابيَّة لا تخضع للحوادث ولا تذل لها

رأيتها وهي في الثانية عشرة في ذاك العمر الذي يتلألأ بملاحة البشر والاشراق فلم ارَ فيها ذاك المحيا الطلق الذي يزدان بهِ مثيلاتها ولا الثغر الباسم الذي ينمُّ عن القلوب المطمئنة والصدور المنشرحة بل رأيتها عابسة الوجه مقطبة الجبين قلقة البال لانها صغيرة يتيمة لا قبل لها على احتمال ما يجرد اليتم من ويلات ومصائب

لقد جاهدت كثيراً لتحفظ مركزها في العائلة مع كثرة العمل على القضاء عليها. وقاومت في سبيل ذلك محتملة كل عناء ومضض لان لها نفساً عالية لا تستسلم ولا تضرع. لقد اورثها اليتمُ الحنينَ والسهاد ولم يبق لها سوى تذكارات موجعة تلهب في قلبها جمرة الحسرة واللوعة وتثير في اعماق صدرها زفرات الحزن والاسى وتستقطر من اجفانها عبرات اليأس والالم. فهل يقوى جسمها الصغير على احتمال هذه الاعباء الثقيلة وهل يستطيع قلبها الفتي ان يستبدل الطرب والتغريد بالنوح

والبكاء؟ متى خرج هذا او ذاك عن حدوده الطبيعية فانهُ لا يحيا طويلاً لذلك ابتدأ المرض يدب في جسمها فاي المصيبتين تحتمل وقد اصبحت يتيمة مريضة وما اقسى اليتيم وما اشقى المريض

دونك ايتها العيون المبصرة والقلوب الحساسة كل مظاهر البؤس المختلفة فهل ترين بين صورها اكثر ايلاماً للنفس من صورة المريض او هل تسمعين بين اصواتها الشاكية الضارعة ادمى للافئدة من انات المريض

منظر اليد السائلة موجع . وصوت الاسير العاني مفزع . وولولة الثكلى تفتت الاكباد . واستغاثة الملهوف تهيج العواطف . وذل الكريم اذا اخنى عليهِ الدهر يثير الاسف والحسرة . وبكاء السجين يرح بهِ الشوق لاهلهِ ووطنهِ يذوب لهُ القلب كمداً . وكل نغمة شجية تبعث الشجى وكل دمعة من دموع الانسانية تخفق لها القلوب وتنهل العبرات . ولكن من المستطاع تدارك هذه المصائب الى حد كبير. فسدُّ عوز الفقير يكفيهِ ذل السؤال. واطلاق الاسير يفرج كربتهُ. ومرّ الايام يخفف ما بقلب الثكلى من حزن والم . وبسط المعونة للكريم المغرم يصون ماء وجههِ . وفك قيد السجين يحيي املهُ . وتعاون الفضائل يمحو بؤس الانسانية وشقاءها . ولكن الناس امام المريض عجزة لا حول لهم ولا قوة . وكل ما في وسعهم نظرة عطف او كلمة رحمة

فواحسرتاه للشباب يفقدهُ المرض عنفوانهُ وزهاءهُ وواحسرتاه للفتاة المثقلة بكل هذه الهموم والآلام وهي لم تتعدَّ الاربعة عشر ربيعاً . لقد تمكن منها الداء وعز الشفاء ولكنها لم تكن تشعر بخطورة حالها في بادىء الامر فكان عزاؤها عما تلقاهُ الامل بزوال الشدة وانصراف السوء . ولقد تحملت كثيراً وصبرت طويلاً وحاربت الداء بكل ما مرّ مذاقهُ . ثم ما لبثت ان رأت اقرب الناس اليها وعزهم عليها ينتابهم ضجر اذ تضور ان ما بها سلاً فتاكاً موديا بها سريعاً. حينئذٍ ذرفت من فرط اللوعة دموعاً لا يذرفها الاَّ من قلَّ نصيبهُ من الاحبَّاء واصبح يشعر انهُ في العالم منفرد وحيد . ولم يغنها كثرة ما لها من الاهلين والاقارب وكل ما لاقت من عطف وحنو عن ان تشعر بظمإ روحها التي جف عنها فيض الرحمة منذ فقدت امها . ولقد كانت في هذا الموقف في حاجة الى روح الامومة السامية ويدها السحرية ولكن انَّى لها ذلك

قاتل الله المرض . لقد عدا على النفس العالية فاذلها وعلى الآمال الحية فخيب وعلى العواطف الحساسة فاضعفها وعلى الشباب المغرّد فابدله انيناً واصبحت الفتاة تندب نفسها كلما ذكرت شبابها الذاهب وقد كان حالها على ما قال الشاعر

ولو انها نفس تموت سوية ولكنها نفس تساقط انفسا

ولقد اثار في نفسي الحزن اذ سمعتها تقول في توجعها مقال حزين ما لنفسي. ما لقلبي . ما لعيني . ما لجسمي . استولى عليّ السأم والضجر . اصبحت لا افرح ولا احزن . ضاقت الدنيا في وجهي . شفّني السقم والنحول . فهل من امل بعد ذلك في ان احيا واتمتع بالحياة . ليت لي ذلك

يا للقلب المكلوم المعنّى . اوجعتهُ الغصات وسحقتهُ الآلام ومع ذلك لم تزل بقية من الامل تحييهِ ما بين آن وآخر . فتزيد نفس الفتاة ولعاً بالحياة وتعلقاً رغم انحطاط جسمها المستمر حتى وصلت الى حد انذر بدنو الاجل . حينذاك كانت تبدو كالملهوف لا يقر لها قرار لانها متعطشة الى الحنو تبحث عنهُ في قلوب المحبين جميعاً لتأخذ منهُ نصيبها الاوفى علها تطفىء غلة الروح

لقد آن للنفس الثائرة ان تهدأ وللعين المقروحة ان تغمض وللقلب المحزون ان يستريح اذ عجز الاطباء واصبح الداء فوق كل دواء فما غربت شمس النهار حتى غرب معها شعاع الامل وخيّم اليأس على القلوب الخافقة واصطحب الليل طي استار الظلام رسول المنايا

نامت العيون وهدأت الجفون ونشر الليل لواء السكون على جميع الكائنات. ألاّ ما اقساك على المريض يا ليل وما اضناك للجسم السقيم والفؤاد المعنّى . لطالما لاقت الفتاة في خلالك من صنوف الويل والعذاب ولطالما هجمت عليها الهواجس والوساوس واثقلتها بالهم والالم وها شبح الموت يحوم في اثنائك حول فراشها يخيفها ويرعد فرائصها. فيا طول الساعة الرهيبة. عبثاً يحاول الشباب الذابل مطاردة الشبح المخيف امام عيني فتاة تنكش منهُ ذعراً وتطبق عنهُ عينها فرقاً وهلعاً. ولكن ملاك الموت فيما وكل اليهِ على عجل لا يتريث ولا يمهل . لقد وافى الاجل وحانت الساعة واحست الفتاة بيد قوية تمتد اليها لتقتطف زهرة حياتها فايقنت الأمر من امر الله ونادت نداء الوداع باسم المحبين جميعاً مختتمة باشهى النداء وارقهِ واعذبهِ واحلاه أماه أماه أماه . ثم اسلمت الروح

مصرية